القومية ومكوناتها
دراسة نقدية

أ. د/ أحمد السيد علي رمضان
أستاذ العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة
بجامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

إن القومية حركة من حركات العصر، تعمل اليوم على تشكيل معالم الحاضر وتخطيط صورة المستقبل لحياة العرب في شتى أقطارهم، وفي مناحي حياتهم السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية على حد سواء.

وهذ ا البحث يوضح لنا التعريف بالقومية ومصطلحها ويبين لنا مكونات القومية وبعد ذلك نقف أمام هذه المكونات لبيان إيجابياتها وسلبياتهاعلى النحو التالي :

أولاً: التعريف بالقومية .

ثانياً : مكونات القومية العربية (عناصرها) .

ثالثاً : نقد القومية .

هذا وبالله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا والحمد لله رب العالمين.

د/ أحمد رمضان

أولاً: التعريف بالقومية:

١ - المصطلح:

كلمة قومية مصطلح سياسي حديث، فهي ترجمة للفظة الفرنسية (Nationlisme) التي يرجح أنها ظهرت أول ما ظهرت بين كتاب العلوم السياسية في أوربا، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. يكاد يتفق المؤرخون على أن مدام (دي ستال ١٧٧٦ - ١٨١٧م) الأديبة والكاتبة الفرنسية كانت أول من استخدم هذا المصطلح في العصر الحديث(١).

وتعني كلمة قومية (ناسيونالزم) الذي ظهرت به مع نشوء الأمم والقوميات في أوروبا. (وطنية الدولة) أو (الدولة الوطنية) التي تعمل في اتجاه طبقي (يميني) متطرف من أجل إنشاء الامبراطوريات التي تهيمن عليها هذه الدول، أي شركات الاحتكار فيها، أي الفاشية الرأسمالية في أشكالها المتنوعة. ثم صحح هذا التعريف فكانت هذه الكلمة المطولة هي (ناسيونالتارزم) والتي تعني أن المؤمن بالقومية - غير العدوانية - قومية الشعب الطبيعي هو (الناسيونالتاري)، بينما القومي الاستعماري العدواني هو (الناسيونالي). الناسيونالية القديمة إذن أصبحت تعني بوضوح العداء لمبدأ القوميات ذات الانفتاح الإنساني، والعداء لمبدأ الحريات الديمقراطية

(١) انظر: د. يوسف خليل يوسف. القومية العربية ودور التربية في تحقيقها. دار الكتاب اللبناني للطباعة. القاهرة ١٩٦٧م. ص٢٣.

(الديمولبرالية)[1].

فكلمة (القومية) وجدت عند أصحاب العلوم السياسية لتعبر عن مرحلة خاصة في تاريخ أوربا، تميزت بحركات التكتل والتماسك القومي من أجل التحرر والوحدة، كما حدث في ألمانيا بعد معركة (ييبنا) سنة ١٨٠٦م لمواجهة طغيان نابليون وتحقيق وحدة الوطن الألماني فيما بعد، وكما حدث في إيطاليا للتحرر من السلطان الأجنبي، وإقرار وحدة الوطن الإيطالي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ويرى مؤرخو الغرب أنها من مستحدثات العصر، تأصلت جذورها منذ أحداث الثورة الفرنسية، وتبلورت ملامحها في البيئة الأوربية، ومنها انتشرت إلى أقطار ومجتمعات أخرى من العالم فيما بعد[2].

٢ - التعريف الاصطلاحي:

يقول الأستاذين (أرنولد) و (رنييه): إن الحقيقة الاجتماعية المقصودة عادة بكلمة القومية معقدة مركبة من ناحيتي الشكل والمحتوى، قابلة للتحول والتغيير، بتغيير الزمان والمكان، حتى أننا لا نملك إلى الآن تعريفاً للقومية يخلو من الغموض والاضطراب[3]. ومع ذلك أذكر بعض

(١) انظر: أحمد موسى سالم. الإسلام وقضايانا المعاصرة. مكتبة القاهرة الحديثة. ص٨٨، ٨٩.

(٢) انظر: د. يوسف خليل يوسف. القومية العربية ودور التربية في تحقيقها. ص٢٣، ٢٤.

(٣) انظر: محمد الحسن. المذاهب والأفكار المعاصرة في التصور الإسلامي. ص٢٥٤.

التعريفات لها كما يلي:

١- **يقول (ساطع الحصري)**: القومية هي ارتباط الفرد بجماعة من البشر تعرف باسم الأمة. وأقدم التعاريف التي يذكرها الأوربيون عن الأمة هو ما جاء في (موسوعة ديدرو ودي لا مبير) في أواسط القرن الثامن عشر، ففيها أن الأمة (هي اسم جمع يستعمل للدلالة على كمية كبيرة من الناس الذين يعيشون على قطعة من الأرض داخل حدود معينة ويخضعون لحكومة معينة). إن هذا التعريف الركيك كاف لدلالة على البداية الضعيفة التي بدأ بها الشعور القومي في أوربا في القرن التاسع عشر.

- ولقد كان أول تعريف علمي للأمة من وضع (مانشيني الإيطالي) الأستاذ بجامعة تورينو الذي أعلنه في سنة ١٨٥١م أي بعد قرن تقريباً من تدوين موسوعة ديدرو - ودالامبير. فيقول: " الأمة مجتمع طبيعي من البشر، يرتبط بعضه ببعض بوحدة الارض، والأصل، والعادات، واللغة، من جراء الاشتراك في الحياة والشعور الاجتماعي "[(١)].

- وجاء في معجم المجمع الفرنسي الذي نشر في سنة ١٨٣٥م أن مفهوم القومية: "الاجتماع أو التكتل الذي يحدث بين الأفراد، وتم حصوله فعلاً، وفي الواقع في صورة (أمة) أو كانت تحدو هؤلاء المتكتلين الرغبة في

(١) انظر: ساطع الحصري. آراء وأحاديث في القومية العربية. ط٢. دار العلم للملايين. بيروت ١٩٥٨م. ص١٠٤.

تكوين أمة متميزة عن غيرها من الأمم وذلك – في كلتا الحالتين – بفضل ما يجمع هؤلاء من تقاليد واحدة، ومصالح مشتركة، وانتمائهم إلى أصل واحد[1]. ويكون بين الأفراد وبين الوحدة القومية التي نسميها (وطناً أو شعباً) نوع من الاتصال النفسي أو الروحي، وليس هذا الاتصال إلا ولاء يحسه الفرد نحو الجماعة التي يعيش فيها.

٢– تعريف (راسل):

– يرى (برتراند رسل) الفيلسوف الإنجليزي المعاصر، أن القومية تتبلور في الشعور بعاطفة روحية اجتماعية واحدة. إن أصل القومية عند (رسل) شعور، والأمة هي نتاج هذا الشعور. ويؤكد هذا الدكتور/ منيف الرزاز فيقول: " القومية أولاً بحياة واحدة، ومصير واحد، ورسالة واحدة، وعقلية واحدة "[2].

٣– تعريف (ساطع الحصري):

يقول الأستاذ ساطع الحصري في حديثه عن الوطنية و القومية: " إن الوطنية هي حب الوطن، والقومية هي حب الأمة. ولما كان الوطن هو قطعة من الأرض، والأمة جماعة من البشر، فإن الوطنية هي ارتباط الفرد

(١) انظر: محمد فؤاد شكري. أوروبا في القرن التاسع عشر. المجلد الأول. دار الفكر العربي. القاهرة ١٩٥٨م. ص٢٢.

(٢) انظر: د. منيف الرزاز. معالم الحياة العربية الجديدة. دار العلم للملايين. بيروت ١٩٦٠م. ص٢٦٨.

بقطعة من الأرض تعرف باسم (الوطن) و القومية هي ارتباط الفرد بجماعة من البشر تعرف باسم (الأمة). وحب الوطن يتضمن بطبيعته حب المواطنين الذين ينتمون إلى ذلك الوطن، كما أن حب الأمة يتضمن في الوقت نفسه، حب الأرض التي تعيش عليها تلك الأمة"[١].

ويقول أيضاً: " الوطنية والقومية من أهم النزعات الاجتماعية التي تربط الفرد البشري بالجماعات، وتجعله يحبها ويفتخر بها ويعمل من أجلها ويضحي في سبيلها "[٢].

"إن الإنسان يحب أمته – تحت تأثير النزعات القومية – ويشعر نحوها بارتباط قلبي شديد، ويعتبر نفسه جزءاً منها، فيفرح لكل ما يزيد مجدها، ويتألم من كل ما يقلل قوتها... "[٣].

٤ – تعريف (ميشيل عفلق):

– يعرف الأستاذ (ميشيل عفلق) القومية فيقول: "القومية للشعب كالاسم للشخص والملامح للوجه. هي قدر قاهر يسير مجموعة من البشر في مجرى الحوادث والظروف فريد، وينسج عليه غلافاً من الصفات متميز الشكل. وكما أن من العبث أن يضيع المرء عمره في اللهف والأسف – لو

(١) انظر: ساطع الحصري. آراء وأحاديث في القومية العربية. ص١٠٤.

(٢) انظر: ساطع الحصري. أبحاث مختارة في القومية العربية. دار المعارف. القاهرة ١٩٦٤م. ص٢٨.

(٣) انظر: نفس المرجع. ص٣٢.

ولدت في غير هذا البيت ووجدت على غير هذه الصورة – فإن من الجهد الضائع أيضاً أن يحاول الإنسان التحلل من رباط قوميته التي أحكمت شدها به أصابع القرون"[1].

ويقول أيضاً: القومية ليست نظرية ولكنها مبعث النظريات، ولا هي وليدة الفكر بل مرضعته وليست مستعبدة الفن بل نبعه وروحه. هذه القومية هي (حب قبل كل شيء) وهي (قدر محتوم) وهي نفس العاطفة التي تربط الفرد بأهل بيته، لأن الوطن بيت كبير والأمة أسرة واسعة، والقومية ككل حب ينعم القلب فرحاً ويشيع الأمل في جوانب النفس[2].

من خلال ما سبق يمكن القول: أن القومية (تماسك وتكتل اجتماعي بين قوم يجمعهم تكوين نفسي مشترك، ينبثق عن روابط وخصائص معينة). أو هي كما يقول أحد علماء الاجتماع: القومية ضرب من العاطفة الاجتماعية، تقوم دعائمها على مشاركة أعضائها بعضهم بعضاً، في قيم معينة. كما يتضح لنا أن القومية تتكون من خلال عمليات ومواقف تاريخية طويلة، وخلال هذه العمليات والمواقف يتكون الشعور القومي حتى يتكامل وينضج عند مرحلة تاريخية بعينها، ومن ثم تصبح المقومات والخصائص والقيم المشتركة التي يقتسمها أفراد هذه العائلة البشرية التي

(١) انظر: ميشيل عفلق. في سبيل البعث. ط١٩. بيروت. ص١١٤.

(٢) انظر: نفس المصدر. ص٥، ٨.

نعطيها اسم (القومية) خصائص شبه ثابتة تميزها عن سائر القوميات الأخرى. ذلك أن القومية تتضمن أولاً نظرة الجماعة إلى نفسها في ضوء علاقاتها بالجماعات الأخرى، ثم تمييز نفسها عن هذه الجماعات بما يوجد بين أفرادها من روابط وأنماط عامة مشتركة مميزة، وهي بذلك توفر للأفراد في وحدتهم إطاراً يشعرون فيه بالولاء لمعان وقيم معينة.

وبهذا يتضمن مفهوم القومية شعوراً (مزدوجاً) وهو شعور الجماعة بنفسها وشعورها بكيانها متميزاً عن كيان الجماعات الأخرى(١).

لهذا يقول د/ حسين فوزي النجار: أن القومية دلالة على انتماء عنصري، حيث هي لغة انتماء الفرد إلى الجماعة القريبة التي يرتبط بها(٢). وهذا يستلزم بالضرورة أن يفرقوا بين من هم ويميزوا بين أتباعهم وبين سواهم، ويرجحوهم على غيرهم في كل أمر، ويحموهم ضد الآخرين، ولو تعارضت مصالحهم مع مصالح الغير تراهم يحافظون على مصالحهم ويذودون عنها، ويضحون بمصالح الغير ويهملونها(٣).

(١) انظر: د. يوسف خليل يوسف. القومية ودور التربية في تحقيقها. ص٢٧.

(٢) انظر: د. حسين فوزي النجار. الإسلام والدولة العصرية. ص١٠٩.

(٣) انظر: أبو الأعلى المودودي. الحكومة الإسلامية. تعريب: أحمد إدريس. المختار الإسلامي للطباعة والنشر. ط٢. القاهرة ١٩٨٠م. ص٢٠٣.

ثانياً : مكونات القومية العربية (عناصرها):

توجد عدة عوامل أدت إلى تكوين القومية العربية، وأهمها عند أعلامها كما يلي:

الخصائص التي اعتمد عليها القوميون هي في الحقيقة خصائص ثابتة ومشتركة لكل قومية من القوميات. ولا يصح بالتالي اعتمادها كأسس عقائدية وأصول فلسفية في بناء حركي عقائدي معين. وأي فكرة لا تعتمد على خصائص ذاتية ثابتة وعلى أصول عقائدية واضحة هي دعوة لن يكتب لها الحياة بل لا يصح حتى اعتبارها مجرد دعوة.

ولذا نجد القومية تفتقر في طورها الأول إلى محتوى عقائدي واضح، وتعتمد على العاطفة القومية المشبوبة. ولذا كانت تائهة في متاهات مقفرة من التفسيرات (الهيولية) لخصائصها ومضمونها الفكريين، مما جعلها فريسة للاتجاه الماركسي؟ ومع ذلك اعتبرت القومية هذه العناصر كأسس عقائدية وكمحتوى فكري تعتمد عليه[1].

وفيما يلي أتحدث عن أهم هذه العناصر:

يرى (ساطع الحصري): أن اللغة والتاريخ هما أكبر مكونات الأمم. فيقول: " إن أهم العوامل التي تؤدي إلى تكوين القرابة المعنوية التي يشعر بها الأفراد في الأمم المختلفة هي اللغة والتاريخ، فإن الاعتقاد بوحدة

(١) انظر: فتحي يكن. حركات ومذاهب في ميزان الإسلام. ص٩٥، ٩٦.

الأصل إنما يكون في الدرجة الأولى من الوحدة في اللغة والاشتراك في التاريخ[١].

١- اللغة:

يقول (ساطع الحصري): أن اللغة هي أهم الروابط المعنوية التي تربط الفرد البشري بغيره من الناس، وبما أن اللغات تختلف بين قوم وقوم، فمن الطبيعي أن نجد الأفراد الذين يشتركون في اللغة يتقاربون أكثرهم من غيرهم. ويتماثلون ويتعاطفون أكثر من سواهم، ويتميزون عمن عداهم، فيؤلفون بذلك أمة متميزة من الأمم الأخرى. إن اللغة هي روح الأمة وحياتها، إنها بمثابة محور القومية وعمودها الفقري وهي من أهم مقوماتها ومشخصاتها[٢].

ويقول د/ محمد أحمد خلف الله: أن اللغة هي الرباط الذي يربط الجماعة البشرية ويجعل منها قوماً ليست إلا الوعاء الثقافي للقوم – لا من حيث إنها الأداة التي تستقر فيها معاني الكتب المقدسة أو الأقوال الموحى بها في أذهان القوم فقط، وإنما من حيث إنها الشيء الذي يشتمل على التراث الثقافي الذي صنعه السلف، والأدوات الثقافية التي يمارس بها المعاصرون الحياة[٣].

---

(١) انظر: ساطع الحصري. أبحاث مختارة في القومية العربية. ص٤٢.

(٢) انظر: نفس المصدر. ص٤٣، ٤٤.

(٣) انظر: د. محمد أحمد خلف الله. القومية العربية و الإسلام. ص١٩.

٢- الأرض:

يقول د/ محمد أحمد خلف الله: أن الأرض هي الرباط الثاني. فالقوم الذين يربطهم مكان واحد هو الأرض التي يستقرون فيها ويمارسون حياتهم بثقافة واحدة على الأرض التي يستقرون فيها. ووجود القوم في أرض واحدة وممارستهم الحياة بثقافة واحدة يخلق فيما بينهم علاقات أخرى قوية تدور حول (المصلحة المشتركة) وحول التعاون والتضامن والتآخي والتصاهر والنسب وما إلى ذلك من علاقات اجتماعية تدفعهم أن يحب بعضهم بعضاً ويدافع بعضهم عن بعض وأنهم يد واحدة في كل شيء[١].

٣- التاريخ:

يقول (ساطع الحصري): أن التاريخ هو بمثابة شعور الأمة وذاكرتها، فإن كل أمة من الامم إنما تشعر بذاتها وتكون شخصيتها بواسطة تاريخها الخاص[٢]. والذي يتمثل في الوقوف أمام أحداث التاريخ ووقائعه، ومنجزاته وإحباطاته حيث يشعر كل جيل من الأجيال بالاعتزاز والافتخار والزهو والانتماء أمام عصور الإزدهار والتقدم، وأمام الانتصارات والبطولات والانجازات التي حققها الآباء والأجداد، أو حققها الأجيال السابقة في جميع ميادين الحياة، كما يشعر بالانكسار والألم

(١) انظر: نفس المصدر. ص٢٠.

(٢) انظر: ساطع الحصري. أبحاث مختارة في القومية العربية. ص٤٤.

أمام عصور الركود والانحطاط، والفرقة والانقسام، وأمام الهزائم والانتكاسات، وانطفاء الفاعلية والتأثير، فيتولد من ذلك جمعية آلام وآمال واحدة، وذاكرة واحدة وشعور واحد[١].

– ويتحفظ الحصري عند ذكر التاريخ فيقول: " عندما أقول التاريخ لا أقصد بذلك التاريخ المدون في الكتب، التاريخ المدفون بين صحائف المطبوعات والمخطوطات – بل أقصد بذلك التاريخ الحي في النفوس، الشائع في الأذهان، المستولى على التقاليد

ويقول أيضاً: أقول بلا تردد: عن أول الواجبات التي تتحتم علينا لتقوية الإيمان القومي – هو كتابة تاريخنا على نمط جديد بعقلية غربية ونزعة قومية[٢].

– من خلال ما سبق يتضح أن القومية عند هؤلاء هي مجموع هذه الروابط ودلالتها. حيث يقول (ساطع الحصري) موضحاً وجهة نظره: " إنه لا الدين، ولا الدولة، ولا الحياة الاقتصادية المشتركة تدخل بين مقومات الأمة الأساسية[٣].

(١) انظر: د. عدنان محمد زرزور. القومية والعلمانية مدخل علمي. مؤسسة الرسالة. عمان ١٩٩٢م. ص٦٥، ٦٦.

(٢) انظر: ساطع الحصري. أبحاث مختارة في القومية العربية. ص١٠٦.

(٣) انظر: أحمد موسى سالم. الإسلام وقضايانا المعاصرة. ص٩١.

- **العلمانية والقومية:**

إن عصر النهضة هو بمثابة حدت تاريخي هام ومحوري في تاريخ أوروبا، حيث بلغ أثره كل مناطق الحياة البشرية وذلك منذ مطلع القرن السابع عشر. ويعد القرن الثامن عشر هو بمثابة الفترة المحورية لهذا العصر. حيث كان هذا العصر مليء بالنزاعات والحروب الدينية والسياسية والقومية، كما كان مزدهراً بالفلسفة والفكر أي أنه تميز بالديناميكية الفكرية والحركية على السواء.

ويمثل عصر النهضة البيئة التاريخية التي تم فيها إقرار العلمانية في أوروبا[1]. حيث كانت نقطة الانطلاق التي بدأ الفكر السياسي الأوربي منها إسهاماته الهامة فيما يتعلق بالدولة والفرد والمجتمع، وكانت العلمانية دعوة لتحرير كل من الدولة من سيطرة الكنيسة وتحرير الفكر الأوربي من الدوران في فلك دراسة العلاقة بين الدين والدولة مما جعله يضع نظريات سياسية أثرت في العالم كله، بالإضافة إلى بقاء واستقرار هذه النظريات قرون طويلة حتى شكلت العقيدة السياسية الغربية وأصبحت راسخة في الوجدان الأوربي.

– إن تنامى الشعور بالقومية أدى إلى إنتاج عداءات مع الكنيسة لصالح كل دولة، مما جعل الكنائس المحلية تدخل في عداء مع الكنيسة

(١) انظر: د. مي سمير عبده متولي. العلمانية في الفكر العربي والإسلامي المعاصر. ص٥٦.

الكاثوليكية ومع بعضها البعض، مما أسهم في تشرذم صوت الكنيسة الكاثوليكية في روما، وأضعفها في مواجهة الدعوات الجديدة التي ناصبتها العداء، مما أدى في النهاية إلى انتصار (القومية) و الإنسانية على الكنيسة. ولقد نتج عن الحروب الدينية التي عاشتها أوروبا في عصر النهضة بين الكاثوليك والبروتستانت وراح ضحيتها كثيرين من الجانبين، أن تزايدت الرغبة في إنهاء هذه الحروب، وذلك عن طريق إزالة سبب هذه الحروب، وهو التعصب الديني، وتم ذلك بإقرار التسامح الديني والعلمانية بفصل الدين عن الحياة العامة تجنباً لمزيد من الحروب والخلافات الدينية(١).

وكان من نتائج عصر النهضة أن توحدت الوحدات السياسية المتشرذمة في ألمانيا وإيطاليا بعد أن أدركت كلتا الدولتين أن الكنيسة الكاثوليكية في روما سبباً رئيسياً في هذا الانقسام حتى تظل لها اليد العليا على هذه الوحدات المتشرذمة مما نتج في تلازم الدعوة العلمانية والقومية في عصر النهضة على أساس أن الدين قد تسبب في الانقسامات، وبالتالي يجب فصله عن السياسة حتى تتمكن الدول من تحقيق وحدتها القومية(٢).

(١) انظر: د. عبدالعزيز سليمان نوار، د. محمود محمد جمال الدين. التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. دار الفكر العربي. القاهرة ١٩٩٩م. ص٨-١٥.

(٢) انظر: د. محمد السيد سليم. تطور السياسة الدولية في القرنين التاسع عشر والعشرين. دار الفجر الجديد للنشر. القاهرة ٢٠٠٤م. ص٣٤، ٣٥.

وهكذا ارتبطت فكرة القومية بالعلمانية بدلاً من رابطة الدين أو المذهب مما أسهم في تراجع دور الدين على المستوى الاجتماعي، ولم يعد معياراً للتفرقة بين البشر. وجاءت رابطة القومية كتعبير عن تنحيه الدين عن المجتمع واستبداله بالقومية، وأصبح ولاء الأفراد الأول للدولة القومية، وأصبح الدين شأناً خاصاً. وارتبطت العلمانية ارتباطاً وثيقاً مع ظهور الحركات القومية، فرغبت الملوك الأوربيين في تكوين دولهم القومية القوية، خاصة إيطاليا وألمانيا؛ لأنهما كانتا مقسمتين. ودفعت هذه الرغبة ملوك أوربا إلى مناصبة الكنيسة الكاثوليكية العداء رغبة في التحرر من سيطرتها على الدول وتمهيداً لفرض الملوك لسلطتهم المطلقة لتكوين دولاً قومية قوية[1].

- وفي عالمنا العربي والإسلامي يقول (باسل الكبيسي): "أن القوميين أمثال (إبراهيم اليازجي، ونجيب عازوري) كان هدفهم إبعاد الدين كلياً عن العمل القومي. وأصبحوا في طليعة التغيير، لأنهم أبدوا أكثر من غيرهم، استعداداً للتجاوب مع القوى الجديدة في الغرب. وكان أمراً طبيعياً أن يرغب هؤلاء في تأسيس دولة قومية لا علاقة لها بالإسلام. كما كان المفكرون العرب من المسيحيين بحكم كونهم أفضل المترجمين للفكر السياسي والقيم الغربية، أول من أيد فكرة القومية العربية الخالية من

(١) انظر: د. مي سمير عبده متولي. العلمانية في الفكر العربي والإسلامي المعاصر. ص٢٨.

أي مضمون إسلامي"[١]. وقالوا: أن الفصل بين الدين والدولة أمر فيه مصلحة كل من الإسلام والشعب العربي. وبهذا حاول القوميون بناء دولة عصرية على أساس قومي، وعلى غرار النظام السياسي الغربي، ميالين لتقليص الدين إلى (رقابة الضمير الشخصي) وجعله (وسيلة للصلة الشخصية بالخالق) [٢].

وبهذا يرى (د/ محمد عابد الجابري) أن العلمانية في بداية الأمر كانت تعني الفصل بين السلطة الروحية والسلطة المدنية، ولكن المقصود هو الدعوة إلى دولة قومية عربية، ضداً على الجامعة الإسلامية، أو المطالبة بدولة إقليمية ضداً على الامبراطورية العثمانية. ثم صارت (العلمانية) – ودائماً على مستوى الخطاب العربي– تعني ترتيب العلاقة بين (العروبة) و (الإسلام) على مدى التاريخ العربي الإسلامي تأسيساً لهوية الدولة القومية القائمة[٣].

– وبهذا يتضح لنا مما سبق أن القومية تشكل الجانب السياسي للعلمانية[٤].

(١) انظر: باسل الكبيسي. حركة القوميين العرب. ص٢١.

(٢) انظر: نفس المرجع.

(٣) انظر: د. محمد عابد الجابري. الخطاب العربي المعاصر دراسة تحليلية نقدية. ص٨٠.

(٤) انظر: د. برهان غليون. المسألة الطائفية ومشكلة الأقليات. ص٥٢.

ثالثاً: نقد القومية:

إن أهداف القومية التي سبق ذكرها هي نقد يوجه إليها. وسأتحدث فيما يلي عن أهم الانتقادات العمة الموجهة إليها:

أولاً: النقد العام:

توجد عدة انتقادات عامة توجه إلى القومية، أهمها:

١ - فساد مفهوم القومية الغربي:

لقد رأى الغربيون أن مفهوم القومية من حيث الانتماء أفضل من المفهوم الديني الواسع الشامل. فنبذوا مفهوم الانتماء الديني الشامل وبدلوه بمفهوم الانتماء الجزئي وهو القومية. وهذا أمر غير منطقي على المستوى الفكري والواقعي من خلال التاريخ الغربي نفسه.

فكلما اتسع المفهوم ليربط بين أكبر عدد ممكن بين الناس، قل التنازع والعدوان بين هذه المجموعة من الناس الذين يربطهم هذا المفهوم. وكذلك كلما ضاقت المفاهيم التي تربط بين البشر، أدى ذلك إلى التنازع بين المنتمين لهذه المفاهيم. ولذا فإن الصراعات الدولية يمكن أن تزيد بصورة كبيرة عندما يسيطر على العالم مفهوم مثل (القومية)، كما يمكن أن تقل هذه الصراعات عندما ينتمي البشر لمفاهيم أكثر اتساعاً ورحابة. ويؤكد صحة هذا ما فعله الغربيون أنفسهم بعد اقتناعهم بفساد مفهوم القومية هذا، والذي تمثل في علو مكانة الانتماءات أو الكيانات الشمولية، أو بالتحديد مفهوم (الدولة الاتحادية) أي الدولة ذات الوحدات الصغيرة داخل كيان

موحد، حيث تحكم فيه كل وحدة إقليمية نفسها، وتحتفظ بذاتيتها داخل إطار الوحدة الكبرى، حيث تتكامل هذه المناطق في التصنيع والزراعة وكافة المنتجات. وسوف نجد دائماً أن أقوى دول العالم تتبع هذا. فالولايات المتحدة الأمريكية مجموعة ولايات، والاتحاد السوفيتي مجموعة جمهوريات، ودول أوربا تفعل هذا من خلال السوق الأوربية المشتركة[1].

– ونجد مفهوم الدولة الاتحادية هذا قد حل الصراعات المريرة والطويلة التي فتكت بالكثير، والتي كانت بين الشمال والجنوب في أمريكا قبل اتحادهما. فباتساع المفهوم اتسعت قلوب وعقول الناس هناك، وأصبح الآن من الممكن أن يدافع الشمالي عن الجنوبي، والجنوبي عن الشمالي، باعتبارهم أبناء وطن واحد، بعد أن كانا يتطاحنان ويقتل كل منهما الآخر. وكان الأمر كذلك في الاتحاد السوفيتي، حيث كانت المعارك والخلافات بين الجزء الجنوبي فيها والتابع لتركيا مع الجزء الشمالي قبل الثورة البلشفية (١٩١٧).

– أما في أوربا فإن الحربين العالميتين الأولى والثانية أكبر دليل على فساد مفهوم القومية هذا، الأمر الذي أدى بالأوربيين إلى الاتجاه نحو الاتحاد، اقتصادياً من خلال (السوق الأوربية المشتركة)، وعسكرياً من خلال (حلف الأطلنطي) في الغرب و (حلف وارسو) في الشرق.

(١) انظر: زكريا فايد. العلمانية النشأة والأثر في الشرق والغرب. ص٨٩، ٩٠.

وعلى هذا فالمفاهيم الشمولية الجامعة أكثر صلاحية للجنس البشري لأنها تنبذ العداوة من المفاهيم الضيقة كالقومية والعنصرية والقبلية... الخ لأنها تثير العداوات والصراعات[1].

٢- نشأة القوميات أدى إلى تقسيم الناس بدلاً من اتحادهم:

لقد أدت نشأة القوميات في الغرب إلى تقسيم الناس كما يلي:

- إما تقسيمهم بحسب الأوطان، فيقال: أمريكي، وكندي، وإيطالي، وألماني، ومصري، وسوري، وعراقي... وهذا التقسيم خاطئ بحسب المقولة القائلة: أن المفهوم الأصح هو القادر على جمع أكبر قدر ممكن من البشر تحت جناحيه، لأنه ينبذ العداوات والصراعات بينهم. وانظروا في خريطة العالم لتتأكدوا من هذا. ماذا جرى بين المسلمين بعد أن كانوا وحدة واحدة؟ وانظروا كذلك لانتهاء الخلافات بين الشمال والجنوب في كل من أمريكا وروسيا بعد الاتحاد. انظروا إلى كل هذه الأمثلة وإلى غيرها، واستخلصوا النتائج الواجبة[2].

٣- أن القومية تفرق بين المسلمين:

أن الدعوة إلى القومية العربية تفرق بين المسلمين، وتفصل بين المسلم العجمي عن أخيه العربي، وتفرق بين العرب أنفسهم لأنهم كلهم

(١) انظر: المرجع السابق. ص٩٠.

(٢) انظر: زكريا فايد. العلمانية النشأة والأثر في الشرق والغرب. ص٩١.

ليسوا يرتضونها. الخ.

يقول (برنارد لويس) [١]: " كل باحث في التاريخ الإسلامي يعرف قصة الإسلام الرائعة في محاربته لعبادة الأوثان منذ بدء دعوة النبي وكيف انتصر النبي وصحبه وأقاموا عبادة الإله الواحد التي حلت محل الديانات الوثنية لعرب الجاهلية. وفي أيامنا هذه تقوم معركة مماثلة أخرى ولكنها ليست ضد (اللات) و (العزى) وبقية آلهة الجاهلية، بل ضد مجموعة جديدة من الأصنام اسمها الدولة، والعنصرية والقومية. وفي هذه المرة يظهر النصر حتى الآن حليف الأصنام. فإدخال هرطقة القومية العلمانية أو عبادة الذات الجماعية كان أرسخ المظالم التي أوقعها الغرب على الشرق الأوسط، ولكنها مع كل ذلك كانت أقل المظالم ذكراً وإعلاناً. وإنه لمن المحزن حقاً أن يؤرخ الإنسان المراحل المتعاقبة التي مرت: كيف بدأ الاحتكاك... ثم العدوى... ثم الالتهاب... ثم الأزمة "[٢].

٣- إن فرض القوى الكبرى الأوربية (فرنسا وروسيا وانجلترا وألمانيا) حمايتها على الأقليات الدينية في الدولة العثمانية، وعلى دول العالم الإسلامي من خلال الاستعمار، اعتراف بانتماء هذه الدول إلى الأمم

(١) انظر: رئيس قسم التاريخ في كلية الدراسات الإفريقية والشرقية بجامعة لندن.

(٢) انظر: برنارد لويس. الغرب والشرق الأوسط. تعريب: د/ نبيل صبحى – ١٩٥٦م. ص١٠٥.

الأوربية[1].

فالقومية تؤدي إلى أنها سلم إلى موالاة كفار العرب وملاحدتهم من أبناء غير المسلمين واتخاذهم بطانة والاستنصار بهم على أعداء القوميين من المسلمين وغيرهم. وفى هذا مخالفة لنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الدالة على وجوب بغض الكافرين من العرب وغيرهم ومعاداتهم وتحريم موالاتهم واتخاذ بطانة. والنصوص في هذا المعنى كثيرة[2]، منها: قوله تعالى: (يا أيها الذين ءامنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين) (سورة المائدة الآية ///).

٤ – القومية دعوة انعزالية:

إن القومية في تحديدها للوطن بحدود جغرافية، وتضييقها مدى حيوية الأمة وإمكانياتها تغدو دعوة (انعزالية) تعود بنا إلى عصر الجمهوريات اليونانية حيث كانت كل مدينة جمهورية قائمة بذاتها لها نظمها وقوانينها؟ فهي تريد أن تمسخ عالمنا العربي والإسلامي الكبير إلى عالم صغير محدود في عصر يتميز بأنه عصر الانطلاق الواسع نحو التعاون الفكري والسياسي بأوسع حدوده. ففي عصر التكتلات العالمية والمعسكرات الدولية والتجمعات الأممية تقوم دعوة القوميين لتعزلنا عن الإسلام الحقيقي الذي يمكن أن يصبح القوة الثالثة في العالم؛ لنعيش في

(١) انظر: د. برهان غليون. المسألة الطائفية ومشكلة الاقليات. ص٣٨.

(٢) انظر: صالح بن عبدالله العبود. فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام. ص٢٦٧.

حدود أقل رفعة من أصغر ولاية في أمريكا مثلاً؟ وإذاً فالقومية تعود بنا إلى حيث انكماش الأمم الصغيرة داخل حدود وهمية، إن كانت في الماضي تدفع عنها الأذى. فهي اليوم تقتلنا في كل مجالات النشاط الإنساني والسياسي والاجتماعي[١].

٥- القومية قاصرة لا تهتم بالأخلاق:

إن القومية تقصر إصلاحها على جعل ولائها في جمع شتات أبنائها، وجعلهم أمة قوية دون أن تعني بالإصلاح الأخلاقي الذي لا تنهض أمة بدونه، ولا تستقيم نهضة إلا على أساس قوي من مبادئه، تكون قاصرة غير شاملة، وميكافيلية غير أخلاقية[٢].

٦- القومية تدعوا إلى التكتل حول رايتها:

وهذا يفضي بالمجتمع إلى رفض حكم القرآن، لأن القوميين غير المسلمين لن يرضوا تحكيم القرآن، فيوجب ذلك لزعماء القومية أن يتخذوا أحكاماً وضعية تخالف حكم القرآن حتى يستوي مجتمع القومية في تلك الأحكام[٣].

يقول الشيخ (عبدالله بن محمد بن حميد): أن أعداء المسلمين لما رأوا

(١) انظر: فتحي يكن. حركات ومذاهب في ميزان الإسلام. ص٨٤.

(٢) انظر: نفس المصدر. ص٨٥.

(٣) انظر: صالح بن عبدالله العبود. فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام. ص٢٦٨.

من جمع الإسلام لمختلفي الأجناس من بني آدم أرادوا إحلال العصبية الجنسية محل الوجدان الديني، فدعوا إلى القومية العربية بدلاً من الأخوة الدينية[1].

ثانياً: نقد مكونات القومية (العناصر).

سبق أن ذكرت أن للقومية عدة عناصر، أهمها اللغة والأرض والتاريخ والمصلحة المشتركة. وسوف أقف مع هذه العناصر كما يلى:

أ- نقد اللغة:

توجد عدة انتقادات توجه إلى اللغة عند القوميين كما يلى:

١- إن اللغة هي وسيلة التعبير عن الفكر، والقوميون يرون أن أبناء اللغة الواحدة يجدون فرصة أوسع وأكبر في التفاهم وتبادل الأفكار فيما بينهم مما يزيل عنهم الغربة والاستوحاش إلى حد كبير. وأن أبناء اللغة الواحدة أقرب في الشعور والإحساس ببعضهم البعض. لكن الاشتراك في وسيلة التعبير عن الفكر لا يستلزم الاشتراك في الفكر ذاته، فقد يعبر عن فكرة واحدة بعشرات اللغات، ويتحد عليها جميع من يتكلمون هذه اللغات. وبالعكس فقد يعبر عن عشرات الأفكار بلغة واحد، ولا يستبعد أن يكون المشتركون في هذه اللغة مؤمنين بأفكار مختلفة فيما بينهم. ولهذا فوحدة الفكر التي تشكل في الحقيقة روح القومية وجوهرها لا حاجة بها

(١) انظر: نفس المرجع. ص٢٧٠.

إلى وحدة اللغة، كما أن وحدة اللغة لا تنتج عنها بالضرورة وحدة فكرية. فما دخل الإنسان في آدميته، وحسنه وقبحه الذاتي؟ وهل يمكن تفضيل شخص يتكلم الألمانية على الآخر يتكلم الفرنسية لمجرد أنه يتكلم الألمانية ولا شيء آخر؟ إن الإنسان يقاس بذاته وجوهره لا بلغته ولسانه(١).

٢- لو كان للغة هذا التأثير القوي في صهر الناس وتكوينهم وتجنبهم للزم أن تكون أمريكا وانجلترا أصحاب قومية واحدة طالما أن اللغة الإنجليزية هي لغة الشعبين. هذا بالإضافة إلى أن الشعب الأمريكي مزيج من سلالات مختلفة نزحت من أوربا عقب اكتشاف أميركا ومن جملتها السلالة الإنجليزية. فهل تكون وحدة أمريكا وانجلترا ضرورة قومية في نظر القوميين بحجة أنها تشتركان في الجنس واللغة(٢).

٣- إن هناك دولاً كثيرة تتمتع بالسيادة والاستقلال الذاتيين وتتكلم أكثر من لغة. فسويسرا مثلاً تتكلم ثلاث لغات دون أن تتبنى واحدة منها. ولكن هذا لا يمنع من وجودها كدولة تعد من أرقى دول العالم. فإنزال اللغة هذا المنزل الضيق - واتخاذها خصيصة من خصائص القومية يخنق المفهوم الفكري الناهض المنطلق ويقعد بالمبادئ مقعد الأنانية البغيضة، وينتحي بها ناحية الانعزالية المميتة. ثم إننا في عصر أصبح كل شعب يتكلم

(١) انظر: أبو الأعلى المودودي. الحكومة الإسلامية. تعريب: أحمد ادريس. ص٢٠٩.

(٢) انظر: فتحي يكن. حركات ومذاهب في ميزان الإسلام. ص٩٦، ٩٧.

لغات عديدة فلم تعد اللغة رابطة إنسانية أقوى من هذه الرابطة التي لم تمنع بعض متكلميها من أن يتجروا بشعوبهم ويقدموها لقمة سائغة للمستعمرين[1].

٤- أن اللغة ليست هي روح الأمة وحياتها كما يقول (ساطع الحصري) الملقب بفيلسوف القومية العربية. لأن الأمم التي دخلت الإسلام وتركت لغتها لم تفقد روحها وحياتها، لأن الروح والحياة من أمر الله تعالى وهي غير اللغة مستقلة عنها. و (ساطع الحصري) الذي يدعوا إلى ذلك كانت لغته الأصلية الأولى هي اللغة التركية. فلم يكن قومياً تركياً؟ بل صار قومياً عربياً وهو غير عالم باللغة العربية، وهي محور القومية وعمودها الفقري كما يقرر في كتابه (اللغة والأدب وعلاقتها بالقومية): إني لست من علماء اللغة، ولا من رجال الأدب، ولم أصب في يوم من الأيام إلى التخصص في اللغة، أو التبريز في الأدب[2].

ب- نقد الأرض:

إن الإنسان حينما ولد في مساحة لا تزيد عن متر مربع، فإن اعترف بهذه المساحة وطناً له فقد لا يستطيع أن يسمى أي بلد من البلاد وطنه، ولكنه يخط حدوداً تمتد إلى كيلو مترات وأميال، بل وفي أكثر الأحيان إلى

(١) انظر: نفس المصدر. ص٩٧، ٩٨.

(٢) انظر: صالح بن عبدالله العبود. فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام. ص٢٤٢.

مئات وآلاف الأميال. ثم يقول: إن وطني يمتد إلى هذه الحدود، ولا علاقة لي بما هو خارجها[١].

– فأية أرض يعتبرها القوميون أرضاَ عربية عريقة ومن ثم يعتبرونها عنصراً من عناصر قوميتهم؟ إذا كانت أرض شبه الجزيرة العربية وصحراء سوريا وهذه فقط التي تعرف بأرومتها العربية فقد سلخوا عن محيط دعوتهم مصر والمغرب العربي بل جميع البلاد الأخرى التي تعربت بعد الإسلام ودخلت فيه. أما إذا كانت أرض العرب بعد الإسلام هي العنصر الأرضي الذي ينادي به القوميون فإن هذه الأرض لم تكن عربية قبل الإسلام وأصبحت عربية بعده. وبالتالي أصبح تاريخها تاريخه، ومعتقداتها معتقداته، ورسالتها في الحياة رسالته. فهي أرض إسلامية بحكم الواقع[٢]. فلماذا لا يقول القومي أنني ساكن الأرض، وأن الكرة الارضية كلها وطني وبلدي، وأن كل إنسان يعيش على وجهها هو ابن وطني وشريكي فيه، وأن حقوقي التي أنالها فوق الذراع التي ولدت فيها، هي نفس حقوقي التي أحصل عليها فوق هذا الكوكب بأكمله[٣].

(١) انظر: أبو الأعلى المودودي. الحكومة الإسلامية. تعريب: أحمد ادريس. ص٢٠٨.

(٢) انظر: فتحي يكن. حركات ومذاهب في ميزان الإسلام. ص١٠١.

(٣) انظر: أبو الأعلى المودودي. الحكومة الإسلامية. تعريب: أحمد ادريس. ص٢٠٨، ٢٠٩.

جـ- نقد التاريخ:

أولاً: إن التاريخ كعنصر من عناصر القومية العربية هو أحد تاريخين: إما أن يكون تاريخ ما قبل (الجاهلية)، وإما أن يكون تاريخ الإسلام. فإذا كان الأول أصبحت دعوى القومية العربية لا تمت إلى الواقعية بصلة، لأن هذا التاريخ المنصرم لا علاقة له بحياتنا الحاضرة وليست له أية خصائص تجعلنا ننتسب إليه أو تحافظ عليه. وإذا كان الثاني أصبح من الضروري أن يكون الإسلام كرسالة أوجدت هذا التاريخ العنصر الأول والأخير الذي يجب أن تعتمد عليه القومية العربية في نهضتها الحديثة[1].

ثانياً: إذا كان التاريخ كما يقول (الحصري): أنه بمثابة شعور الأمة وذاكرتها. ولا أقصد بذلك التاريخ المدون في الكتب المدفون بين صحائف المطبوعات والمخطوطات[2]. وإذا لم يكن التاريخ هو المدون في الكتب، فنسأل: ماذا يبقى من التاريخ؟

هذا وبالله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا والحمد لله رب العالمين.

(١) انظر: فتحي يكن. حركات ومذاهب في ميزان الإسلام. ص٩٩.

(٢) انظر ساطع الحصري. أبحاث مختارة في القومية العربية. صـ١٠٦

فهرس المصادر والمراجع:

١) القرآن الكريم.

٢) السنة النبوية المطهرة.

٣) أبحاث مختارة في القومية العربية. ساطع الحصري. دار المعارف. القاهرة ١٩٦٤م.

٤) آراء وأحاديث في القومية العربية. ساطع الحصري. طـــ٢. دار العلم للملايين. بيروت ١٩٥٨م.

٥) الإسلام والدولة العصرية. د. حسين فوزي النجار. الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٧ م.

٦) الإسلام وقضايانا المعاصرة. أحمد موسى سالم.مكتبة القاهرة الحديثة سنة ١٩٧١م.

٧) أوروبا في القرن التاسع عشر. محمد فؤاد شكري. المجلد الأول. دار الفكر العربي. القاهرة ١٩٥٨م.

٨) التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. د. عبدالعزيز سليمان نوار، د. محمود محمد جمال الدين. دار الفكر العربي. القاهرة ١٩٩م.

٩) تطور السياسة الدولية في القرنين التاسع عشر والعشرين. د. محمد السيد سليم. دار الفجر الجديد للنشر. القاهرة ٢٠٠٤م.

١٠) حركات ومذاهب في ميزان الإسلام. فتحي يكن. مؤسسة الرسالة –بيروت – الطبعة السابعة – ١٩٨٧ م.

١١) حركة القوميين العرب. باسل الكبيسي. الطبعة الثالثة. (د. ت).

١٢) الحكومة الإسلامية. أبو الأعلى المودودي. تعريب: أحمد إدريس. المختار الإسلامي للطباعة والنشر. ط٢. القاهرة ١٩٨٠م.

١٣) العلمانية النشأة والأثر في الشرق والغرب. زكريا فايد. الطبعة الأولى . دار مكة للطباعة والنشر . ١٩٨٨م .

١٤) العلمانية في الفكر العربي والإسلامي المعاصر. د. مي سمير عبده متولي.

١٥) فكرة القومية العربية في ضوء الإسلام. صالح بن عبدالله العبود. دار طيبة – الرياض – السعودية – الطبعة الأولى.

١٦) الغرب والشرق الأوسط. برنارد لويس. تعريب: د/ نبيل صبحي – ١٩٦٥ م.

١٧) في سبيل البعث. ميشيل عفلق.الطبعة الرابعة . دار الطليعة . بيروت ١٩٧٠م .

١٨) القومية العربية ودور التربية في تحقيقها. د. يوسف خليل يوسف. دار الكتاب اللبناني للطباعة. القاهرة ١٩٦٧م.

١٩) القومية والعلمانية مدخل علمي. د. عدنان محمد زرزور. مؤسسة الرسالة. عمان ١٩٩٢م.

٢٠) المذاهب والأفكار المعاصرة في التصور الإسلامي. محمد الحسن. دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية – الطبعة الثالثة – ١٩٩٠ م.

٢١) المسألة الطائفية ومشكلة الأقليات. د. برهان غليون. دار الطليعة للطباعة والنشر – بيروت – الطبعة الأولى – ١٩٧٩ م.

٢٢) معالم الحياة العربية الجديدة. د. منيف الرزاز. دار العلم للملايين .بيروت ١٩٦٠م.

فهرست الموضوعات

مقدمة: ٢٦٥
أولاً: التعريف بالقومية : ٢٦٦
١ - المصطلح: ٢٦٦
٢ - التعريف الاصطلاحي: ٢٦٧
ثانياً : مكونات القومية العربية (عناصرها): ٢٧٣
١- اللغة: ٢٧٤
٢- الأرض: ٢٧٥
٣- التاريخ: ٢٧٥
- العلمانية والقومية: ٢٧٧
أولاً: النقد العام: ٢٨١
ثانياً: نقد مكونات القومية (العناصر). ٢٨٧
أ- نقد اللغة: ٢٨٧
ب- نقد الأرض: ٢٨٩
جـ- نقد التاريخ: ٢٩١
فهرست الموضوعات ٢٩٤